قراءة في كتاب حوار الأيّام للأستاذ حبيب صادق

أ.د. دلال عبّاس

كنت وأنا أقرأ كتاب **حوار الأيام** أُسائل نفسي، إنْ كان عليَّ أنْ أكتبَ عن الكتابِ، أم عن صاحبه، ولمّا أنهيتُ القراءةَ تيقّنت أن لا مجالَ للفصلِ بينَ الكتاب - وهو من أدب السيرة- وبين مَن أملاه.

هذا الكتابُ السِّفر الناطقُ باسم صاحبه، يتضمَّن فضلًا عن سيرة صاحبه الغنيِّة، وتفاصيل حياته في النبطيّة، ثمَّ في الخيام فالنبطيِّة من جديد، فبيروتَ التي قضى فيها معظم حياته، حاملًا همَّ الجنوب، يتضمَّنُ وصفًا دقيقًا للأحداث التاريخيَّة - السياسيّة، التي جرت في لبنانَ والعالم العربيِّ والعالم، والتي كان شاهدًا على أحداثِها مباشرةً أو غيرَ مباشرة... نستعيدُ معه الآياتِ القرآنيَّة والأحاديثَ النبويّة والعَلَويّة التي تركّز على العدالة وعلى صلة الرِّحم، لما لذلك من ارتباط بحياته الشخصيَّة طفلًا، ونستعيدُ معه معاناةَ الجنوب وأزماتِه قبل الحرب العالميّة الثانية وبعدها، وفي عهد الانتداب وعهد الاستقلال على حدٍّ سواء، وعَلاقةَ الجنوب بفلسطين وبالقضيّة الفلسطينيّة قبل النكبة الأولى وبعدها وحتّى اليوم، وإهمالَ الدولة التي لم تكن دولةً بالمعنى الحضاريّ للدولة والفسادَ الإداري المتفشّي في حناياها، ومحاولاتِ الإصلاح التي أقدم عليها فؤاد شهاب، وعاينها حبيب صادق بنفسه في وزارة الصحّة، وإن ظلَّت في نطاقٍ ضيِّق نسبيًّا. نتعرّف واقعَ المؤسّسات قبل العهد الشهابيِّ وفي أثنائه وبعده، وإهمالَ الدولة للجَنوب وأهله، كما لغيره من الأطراف، والشبهَ العجيب بين ماضي هذا البلد وحاضِره، وبين الإقطاعيّين القدماء وبطانتِهم، والإقطاعيّين الجدد وأزلامهم، والتزويرَ المفضوحَ للانتخابات النيابيّة، والتمييزَ الطبقيَّ في كلّ المجالات، حتّى داخل السجون، وتدخّل السفارات الأجنبيّة قبلَ ما سُمِّي بالاستقلال وبعدَه بتفاصيل الحياة السياسيَّة، وانتخابِ رؤساء الجمهوريّة، وكيف كان للسفارة البريطانيَّة ناطقون باسمها داخل هذا الكيان الهجين، قبل صعودِ نجم السفارة الأميركيّة؛ فضلًا عن المحسوبيّات والفساد، والتناقضِ في مواقف الأحزاب اللبنانيّة، ومسؤوليِّة رجال السياسة الجنوبيّين عن معاناة أبناء الجنوب القاسية على الصعدِ كافَّةً...

في الكتاب نتعرّف كذلك أسماءَ المجلّاتِ الأدبيّة والصحف الوطنيّة اللبنانيّة والسوريّة... والأحداثَ التي شارك الأستاذ حبيب شخصيًّا فيها، كمؤتمر **رابطة الكتّاب السوريّين** في العام 1954، وتاليًا **رابطة الكتّاب العرب**، وأسماءَ المشاركين في المؤتمر من مختلف الأقطار العربيّة ومداخلاتهم، والأحاديثَ التي دارت بينهم، ونزولَهم ضيوفًا على حنّا مينة في بيته...

في الكتاب نتعرَّف كتبًا لم نقرأْها، ويجدر بنا أنْ نفعل... نتعرّف التسامحَ الدينيَّ الذي كان سائدًا في البيئات المختلطة، لا سيّما في النبطيّة والخيام، والتعصّب المذهبيّ في مناطق أخرى، كقصّة السيّدة الزلقاويّة (نسبةً إلى الزلقا)، ووصفِها العنصريّ لتلاميذ المدرسة الرسميّة في بلدتها، أبناءِ العمّال الزراعيين القادمين من البقاع (ص398)، وما كان يصدر من تعليقات وتصريحات على ألسنةِ معلّمي مدرسة الزلقا أيام العدوان الثلاثيّ على مصر، وشماتتهم بضحايا العدوان الثلاثيّ...

في الكتاب مادَّة غنيَّة لمن يريد أنْ يدرسَ موضوع المدارس اللبنانيّة، وعَلاقةَ الدولة بالتربية والتعليم، والمستوى المتفاوتِ للمدارس الرسميّة، التي أجبرته الظروف والنقلُ التعسّفيّ أن يدرّس في عددٍ منها، وفي مناطقَ مختلفة، وبإدارات متنوّعة. هذا النقل التعسّفي هو الذي أتاح لصاحب السيرةِ ولنا تعرّف نماذجَ مختلفةٍ من المديرين والمعلمين والتلامذة المتنوّعي الأديانِ والطوائف والمستويات الاجتماعيّة...وعلاقة التعليم بالتمييز الطبقيّ...

موضوعيّة الكاتب جليَّة في النفثات الحرّى- كما سمّاها- التي ذكرها متألِّما، وفي استشهاده بما كتبه أهلُ الاختصاص كلٌّ في مجاله دينيًّا وسياسيًّا وتاريخيًّا... كإيراده مثلًا أقوالَ علماء الدين في ما يتعلّق بمشكلة تعدّد الزوجات.

أمّا صاحب السيرة، الحبيبُ الصادقُ، فأنا لم أكن أعرفه من قرب قبل أن ألتقيَهُ في أوائل التسعينات في رحابِ **المجلسِ الثقافيِّ للبنانَ الجنوبيّ**، في بيروت، تحضيرًا للجلسة التي خصَّصها المجلسُ بتوجيهٍ من الأستاذ حبيب، لمناقشة كتابي "بهاء الدين العامليّ، أديبًا وفقيهًا وعالمًا"، أدركتُ في تلك اللحظة إلى أيِّ حدٍّ كان هذا الرجل عاشقًا للجنوبِ وأهلِه، ولتراثه، وحاملًا همَّه قضيَّة وطنيَّة وإنسانيَّةً وثقافيّة. لقد استوطنتْ ملامِحُهُ مخيِّلتي رجلًا استثنائيًّا يوافقُ ظاهرُه باطنَه- وأنا مذ تعرَّفت بهاءَ الدين العامليِّ- باتَ المِعيارُ الذي أقيسُ به قيمةَ الإنسان هو مدى توافقِ ظاهرِه وباطنِه، أقوالِه وأفعالِه، فضلًا عن نظافة كفّيه. لقد وجدتُه رجلًا متَّزنا، ذا مهابةٍ، واثقًا من خطواته ومن نفسه، فائض المحبّة. يومَها راودني سؤالٌ عالقٌ في ذهني، ولم يُغادرْني، عن مردِّ هذه الجدّيَّةِ المفرطةِ في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، وعن تلك المسحة الشفيفةِ من الحزنِ الدفينِ المتلفِّعتُهُ قسماتُ وجهه.

وجاءني هذا الكتابُ الوازنُ **"حوار الأيّام"** ليجيبَ عن هذا السؤالِ وعن عشرات الأسئلةِ الأخرى، وردّني إلى أزمنةٍ أعرف أواخرها أكثر من أوائلها...

عدتُ إلى يوم كنت أحاول تعرّف الشخصيّات النبطانيَّة التي أورد ذكرها الأستاذ جواد صيداوي في ثلاثيَّتِهِ **"أجنحة التيه"** بأجزائها الثلاثة، وقد حفّزني وصفه لأستاذه الشاعر نمر صبّاح، للبحث عن تراثه، والكتابة عنه، ولفتني وصفه في الجزء المعنوَن **"الإقلاع"** لزميلٍ له جديدٍ في مدرسة كفرّرمّان سألته يومها من يقصد بهذا الوصف فقال: الأستاذ حبيب صادق...

نسيتُ الأمرَ إلى أن عدتُ بعد لأيٍ، وطالعتُ هذا الوصفَ الذي أثبته الأستاذ حبيب في كتاب سيرته، لأنَّه رأى على الأرجح أنّه يصوِّره تصويرًا دقيقًا...

يقول جواد الصّيداوي:

"زميلي الجديد في مدرسة جرنايا (كفررمان) شابٌّ فارعُ القامةِ، ضعيفُ العودِ، أسمرُ البشرةِ، حسنُ السَّمْتِ، في نظراته عمقٌ شجيٌّ، تلوحُ في أغوارها خلجاتُ همٍّ، لا أدري كُنهَهُ، يُحاولُ صاحبُه إخفاءَهُ فلا يستطيع، يَستهلُّ الكلامَ إذا تكلَّمَ همسًا، ثمّ تغلبُ على صوتِه نبرةُ الرجولةِ المبكِّرة فيأسرُ سامعَه، يُصغي إلى محدّثه بقسماتِ وجهِهِ كلِّها، إذا ضحكَ أرنَّ، وإنْ أضحَكَ أجادَ". ثم يقول "...إنَّه أكثرُ نضجًا منّي وأمتنُ ثقافةً"...

كنتُ أعرفه إنسانًا بكلِّ ما تعنيه كلمةُ الإنسان من رأفةٍ ورحمةٍ وصِلةٍ للرِّحم، ومحبَّةٍ تسع الدنيا بما فيها، وصادقًا كاسمه قولًا وفعلًا، ونزيهًا، والنزاهةُ بالمعيار الدينيّ والفلسَفيّ والإنسانيّ فوقَ الفكرِ والأدبِ والشعر والنضال، وأسمى من كلِّ ما عداها من صفات...

لقد جاء هذا الكتابُ *السِّفرُ الذي يتوِّجُ كتبهُ* الأخرى ويحاوطها ويرعاها، كاشفًا عن صفاتٍ تميِّزه يعرفُها معاصروه، وستتعرَّفها من خلاله الأجيالُ القادمة...

هذا الكتابُ الذي ينطلق فيه صاحبُه من أعمق تلافيف الذاكرة، يُريكَهُ طفلًا ذكيًّا، طُلعةً، عانى مرارة الحياةِ، وذاق طعم اليُتمِ صغيرًا، فجعلته المعاناةُ رجلًا عظيمًا، إنسانًا، باحثًا عن **العدالةِ** التي دعا إليها الدين في نصوصِهِ المقدّسة، والتي تربّى على تعاليمها، واستوطنت الطبقةَ الأقدمَ من ذاكرتِه... وبحثَ عنها شابًّا في الأفكار والفلسفاتِ والشرائعِ البشريّة... ودائمًا كان يجد أنَّ البشرَ لم يقيموا الميزان، ولم يقرنوا الكلام بالفعل، ولم يطبّقوا عمليًّا ما كانوا يعظون به، أو يُنظّرون له، أو هم على أقلِّ تقدير قد أخطأوا في التطبيق وظلّوا عند حدود الظاهر، من دون أن يسبروا بواطنَ الأمور...

كان صادقًا كاسمه في ما دوَّن أو أملى، وكان نزيهًا كدأبه ومؤدَّبا في نقده، أشارَ إلى الخلل الكامنِ في التطبيق العمليّ، لما تدعو إليه التعاليمُ الدينيُّة السامية، كأنّ بشريّة القوّالين هي التي تجعلهم يضعون مسافةً أو فاصلةً بين النظريّة والتطبيق، أو كأنّ الواحدَ منهم اثنان: واحد ينظِّر، والآخرُ ممارساتُه لا عَلاقَةَ لها بما يُنظِّر له الأوّل...

لقد كشف النقابَ في هذه السيرةِ عن وقائعَ ناطقةٍ - كما يقول - ذاتِ دلالةٍ بليغةٍ جرت في صميم الحياةِ الداخليَّة لعائلته، وأحدثت بعضَ الخَللِ في بنيتها، ما انفكّت صورُ ذلك الخللِ راسخةً في قعرِ ذاكرته المثخنةِ بالقروح - بحسب قوله - مضيفًا أنَّ هذا الكشفَ لا يعني أحدًا غيرَه في من بقيَ حيًّا من أفراد الأسرة ... وحين يستشهد بأقوال بعض العلماء عن القضايا التي أقضَّتْ مضجعه يقول:

"إنّي أقدمتُ على الاستشهادِ بتلك الأقوال بسبب الإيمانِ العميق بقضيّة **العدالة** في هذه الدنيا وتشفع به طهارة القلبِ وقصدي من وراء ذلك، كان العثورَ على ردودٍ مهدّئة على الأسئلةِ **الكاويةِ** التي ما انفكّت تدوُّم في تجاويف الذاكرة، وتلذع شغافَ القلبِ، وستظلُّ إلى يوم يستقيم فيه ميزانُ العدالةِ في هذه الدنيا، وهو مجهول الولادة، ليس في غضون عمري فحسب بل ربّما في غضونِ عمر الأجيال [الأمل بالمخلّص!!].

ما باح به الصادقُ يشرحُ الأسبابَ الكامنةَ وراءَ الصفاتِ الشخصيّة التي اكتسبها صاحبُها من الظروفِ المحيطةِ به، واندمجت تلقائيًّا مع الصفاتِ الموروثةِ جينيًّا... إنَّها **المُعاناةُ** التي تصنعُ العظامَ وتفجُّر المواهبَ، وتخلق بواكيرَ الوعي بتناقضات الطبيعةِ البشريّة والقوانين الاجتماعيّة. والفقرُ الماديُّ المقترنُ بتربية صالحةٍ يُنتجُ امتلاءً معنويًّا، ويُفجِّر الحسَّ الانسانيّ... فالمولودُ لعائلةٍ علميَّةٍ عريقةٍ ضاربةِ الجذورِ في رحاب جبل عامل، ورث ذكاءً حادًّا فطريًّا وموهبةً شعريّة وأدبيّة، وكان من الممكنِ أنْ يَضيعَ هذا الموروث وهو لا يزال في العاشرة من عمره في ظلِّ الظروفِ المعوِّقة التي استجدّت في حياته بعد وفاة أبيه... لكنّ الله حباه أمًّا نَهَضَتْ – كما يقول-بكفاءةٍ عاليةٍ بمسؤوليَّتَي الأبوّة والأمومةِ معًا، وذلك قبل رحيل والده إلى الملأ الأعلى وبعد رحيله (التعبير له ص 45). لقد أورثته الأمّ تسامحًا عزّ نظيرُه لدى النساء، ومحبَّةً للآخرين، ووصفها بأنّها كانت على جانب كبير من المحبَّةِ للناس والرأفة والرحمة بالفقراء والمساكين والمستضعفين، وصولًا إلى الرأفةِ بكلِّ ذي حياة، حتّى أنّها كانت تُلقي - وهم في الخيام - حبّات البرغلِ أو السكَّر في طريقِ رتلٍ من النمل الباحث عن رزقه في باحةِ البيت، أو تضعُ بعضَ الطعامِ في وعاءٍ مسطّح، منخفض الحافّة، وتقدّمه بحرصٍ شديدٍ إلى قطّة شاردةٍ في الحيّ (ص49) ... وهي التي كانت تروي له ولإخوته أعذبَ الحكاياتِ وأمتَعَها، وهي المرأة الأميّة. ولا تزال في وعيه ولاوعيه تلك الأمثالُ الشعبيُّة التي كانت تحسن اختيارها وإطلاقَها..يقول عنها إنّها كانت مثالًا في التقوى والورع والإيمانِ الدينيّ الخالص لوجه الله تعالى ولرسوله الكريم وللأئمة الاثني عشر...

علَّمتْه الرضا بما قُسم له في حياته العائليّة على الرَّغم من عدم اقتناعه بعدالتها بأيِّ وجه من الوجوه (ص52). يقول إنّه تفهَّم الأمرَ الفاجع من غير أن يقتنع بعدالته، وأن يتمكَّن من ترميم الخراب الهائل الذي أحدثه في بنيةِ ذاكرته وفي صميم نظرته إلى قضايا بالغةِ الأهميّة في هذه الدنيا، لا سيّما قضيةُ الزواج وتكوينِ أسرة (ص53)، لقد ظلَّ طيلة حياته يبحث عن **العدل** الذي افتقده صغيرًا، متمثّلًا بقول للسيّد محمّد حسين فضل الله:

"لا يمكن أنْ تكونَ مسلمًا إنْ لم تكنْ عادلًا" (كتاب "الندوة"، ص136).

هذا الامتلاءُ المعنويُّ الذي نلحظه في شخصيّته، وتلك المحبّة الفائضة لمن حوله مردّها إلى تلك الأمّ، التي أغدقت عليه شخصيًّا فيضَ رعايتها على مدى سنواتِ العمرِ الجميلِ التي أمضاها في ظلِّها الظليل (العبارات له)، على الرَّغم من كلِّ الصعوباتِ التي واجهتهم صغارًا لا ناصرَ لهم ولا معين بعد وفاة والدهم، إلّا قلّة رائعة من الأرحام في بلدةِ الخيام.

الأمّ هي التي رسمت معالم شخصيّته سلوكيًّا من دون أن تدري، فما زرعته في نفسه توجيهاتُها في تلك المرحلةِ المثقلةِ بالهموم والمسؤوليّات، والحافلةِ بالصعوباتِ والتحدّيات، لم تُتِح له كما يقول فرصةَ التنعّم بمباهج الحياةِ في سنِّ الفتوّة ومطلع الشباب... يقول: " نعم لقد ولدتُ شيخًا هرمًا (ص 157)، لم أنخرطْ يومًا في صفوفِ تجمّع ما كحركة كشفيّة أو فريقٍ رياضيّ، ولم أشارك أترابًا لي في نزهة أو في رحلةٍ سياحيّة"... إنّها التربية المحافظةُ التي تولّتها الأمُّ، تحت شعار أنّ ابنَ المرجع الدينيّ لا يجوز أن ينتهكَ حرمة القاعدة ويرتادَ المقاهي، كي لا تتناوله الألسنُ الحِداد... حتى في بيروت ظلَّ مصرًّا على اجتنابِ ارتياد المقاهي، عدا تلك الاستثناءات، حين تقتضي الضرورةُ التقاءَ صديقٍ عربيٍّ أو ضيفٍ طارئ (ص442)؛ وفي الوقت نفسه، تحوّل بيتُهم المتواضع في بيروت إلى ما يشبه منتدًى للأدب والشعر والثقافة والسياسة (ص368) ، ولم يكن يخلو أسبوعيًّا في تلك الأثناء وفي المرحلة التي أعقبت العودة من النبطيّة بعد أحداث العام 1958 من ضيفٍ أو أكثر من الأقارب القادمين من الجنوب.. وعلى الرَّغم من حجم التعب الذي كان يلحق بالوالدة من جرّاء تلك الظاهرة، فهي لم تتأفّفْ يومًا، ولم يبدُ عليها أيُّ ضيق بل كان يُسعدُها أن تستقبل الضيوف، وتجدُ متعةً في محادثتهم حول قضايا الجنوب وأحوال أهله المقيمين... ومع توالي الأيام شملت الاستضافةُ فتياتٍ وفتيانًا من الأهل الأقربين، لمتابعة دراستهم في بيروت تحت إشرافهما ورعايتهما الرحيمة (التعبير له، ص367).

لقد نقلت إليه الأمّ بسلوكها وسيرتِها العمليَّة تسامحًا ونبلًا تجلَّى من بعدُ في إحيائه تراث والده وإخوته ونشره، وفي طريقة معاملته لأفراد عائلتيه الصغرى والكبرى وفي وفائه لأصدقائه، وللجنوبِ بكلّ ما يمثّله... كما تجلّى في كيفيّة تعامله مع ذوي الحاجات في وزارة الصحّة، حين أُتيح له في العهد الشهابيّ أن يكون موظّفا مسؤولًا فيها، من دون وساطةٍ أو منَّةٍ من أحد...

عناصر ثقافته:

ما من شكّ في أنّ ثقافته الموسوعيّة مردّها إلى ذلك الولع الشديد بالمطالعة، والشعور الدائم بالتقصير في بناء ذاته ثقافيًّا: يقول إنّ نهمَه كان شديدًا للاطلاع على كلِّ جديدٍ في الأدب والفكر والسياسة، مع الحرص على قراءة المختار من التراث العربيّ، ولا سيّما كنوزه الشعريّة، وقراءةِ **الروايات والدراسات الأدبيّة والفلسفيّة، والكتابات الشعريّة والمجلّات المختلفة كالطريق والثقافة الوطنيّة والعرفان والأديب والآداب... فضلًا عن النشاط الثقافيّ المتنوّع، والصلة بالأدباء القادمين** مثله من الجنوب، وبالأدباء الأعلام في بيروت لا سيّما الشيخ عبد الله العلايلي، وفي الأقطار العربيّة الأخرى من خلال أنشطة المجلس الثقافي للبنان الجنوبيّ. تمازج هذه الألوان الثقافيّة بما ظلَّ عالقًا في ذهنه من مرحلة التديّن الأولى يوم كان يقرأ في الخيام الأدعيةَ للنسوة المتحلّقات حوله، والصلاةِ في المسجد في الخيام وفي النبطية بعد العودة إليها، وانتقاء ذاكرتِه من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وحِكم الإمام عليّ ما يركّز على العدالة في معاملة الآخر أي على جوهر الدين:

"وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات:13).

"الخلقُ كُلُّهم عِيالُ الله عزَّ وجلَّ، وأَحَبُّهم إليه أنفعُهم لعِيالِه".

"لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لأبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى".

"النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ".

"مَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ اَلْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ".

"لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ".

و"مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ".

و"إذا رأيتُم الظالمَ ولمْ تأخُذوا عَلى يدَيْه يُوشِكُ أنْ يعمَّكمُ اللهُ بعَذابٍ".

و"النُّاس صِنْفانِ إمّا أخٌ لكَ في الدِّينِ أو نظيرٌ لكَ في الخَلْقِ".

و"العَقْلُ رَسولُ الحَقِّ".

و"غَلَبَةُ الهوى تُفسِدُ الدِّيْنَ والعَقْلَ" الخ...

"إنَّ تسجيل الأستاذ حبيب لهذه الآيات والحكم، وبالذات للآيات:

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ" (النحل:90).

و"فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الروم:38).

و"آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ" (الإسراء:26).

أقول إن تسجيل الأستاذ حبيب لهذه الآيات والأحاديث وقوله إنّها لا تزال ماثلة في أعماق ذاكرته، إنّما هو تأكيدٌ على أنّ الدين إنْ لم يكن على هذا النحو، إنّما هو تمسُّك بالقشورِ من دون اللباب، أو تمسّك بالظاهر من دون الباطن، أو ما يسمِّيه الشيخُ البهائي: الثقافة القشريّة...

يضاف إلى كلّ ذلك مشاركته في مرحلة الشباب، إلى جانب أصدقائه اليساريين في النبطيّة بإحياء الشعائر الكربلائيّة، وإعادةِ كتابة النصّ الذي يُمثَّلُ في اليومِ العاشر، واصفًا الحدثَ الكربلائيّ بأنّه واقعةٌ تاريخيَّةٌ أحدثت منعطفًا في تاريخ الإسلام والمسلمين...

أمّا عناصرُ ثقافته اليساريّة، فتعود أيضًا إلى مرحلة الشباب، وزمالتِه للطلاب اليساريّين القادمين من حولا ومن غيرها من قرى الجنوبِ الغارقة في وحول الحرمان، المجاورةِ لفلسطينَ المحتلّة، وبعد ذلك مزاملته لجواد الصيداوي في مدرسة كفررمان، وصداقته لبعض المعلّمين التقدميّين في مدينة النبطيّة، وبفضل قراءاته الكثيرة المختارة من مطبوعاتٍ حافلة بالدراسات النقديّة والأبحاث الفكريّة الوازنة...

إنّ ثقافته المعمَّقة والغنيّة حالت بينه وبين التحزّب بمعنى الانتماء إلى حزبٍ ما والدفاع عن مواقفه حلوِها ومرّها، لأنّ ارتفاع منسوب الوعي لديه قَوّى حسّه النقديّ: انتقادُ **عصبه العمل القومي** (ص310) التي كان أحدُ قادتها يدير مكتب حلف بغداد في بيروت، وانتقادُ موقف **الحزبَين الشيوعيَّين السوريّ واللبنانيّ** من قرار تقسيم فلسطين... ولم يُخفِ ما أصابه من شعور عميق يمتزج فيه الحزنُ بالسخط والرفض ويترافق مع سلّة من التساؤلات الحائرةِ والغاضبةِ تتّصل بالمعايير القيميّة التي يجب أن تُعتمد قولًا وفعلًا... لذلك حاولَ مرارًا التأكيد على أنّ صلته بحسين مروّة ومحمّد دكروب قامت على أساس أدبيّ قبل كلِّ شيء...

صحيح أنَّ القراءةَ تفعل فعلَها، لكنّ اختيار ما يُقرأ إنّما يعود إلى العناصر الأولى التي تكوّن وعيَ الانسان بذاته ومحيطه: السنوات الأربع التي قضاها في بلدة الخيام من العاشرة حتى أواخر الرابعة عشرة: الحرمان الذي اكتوى بناره (كما يقول ص 330)كان الدافعَ وراء محاولته تحجيم **الحرمانِ** عن الإنسان قريبًا كان أو بعيدًا...

عمله وهو صغير جدًّا، ثمّ ممارسته التعليمَ قبل بدء المرحلة الثانويّة: العمل والدراسة في الوقت نفسه، وما علق في ذاكرته من مرحلة الخيام أيضًا ممّا كان يسمعه ويلتقطه من أفواه المتقدّمين في السنّ، في البيت وفي خارجه من رواياتٍ تصف أشكال الصراع الاجتماعيّ أو الطبقيّ التي كان يشهدها ماضي الخيام بينَ فَيْئةٍ وأخرى، وكان يستوقف وعيَه الوليدَ كما يقول، ويثير غضبه وإنكاره من أخبار ذلك الصراع انحيازُ السلطات الحكوميّة المحليّة انحيازًا فظًّا ومستمرًّا إلى جانب المتنفّذين الكبار على حساب حقوق الفلّاحين المشروعة، وحسابِ مصالحهم وكراماتهم... وكان يشتعل- كما يقول- حماسةً واعتزازًا حين تُروى له حكايةٌ شعبيّةٌ عن انتفاضة الفلّاحين في الخيام، في مطالع القرن المنصرم، وعن مواقفِ رجالهم الجريئة، وكان يتمنّى لو أنّ أباه الشيخ كان مناصرًا للثائرين!

إن عمله المأجور طفلًا في الحقل الزراعيّ (ص94) فتح وعيه على العلاقة بين مالك الأرض والفلاح الذي يستثمرها بعرقه وسهره لقاء حصّة محدودة من المحصول بمقتضى نوع المحاصّة المعتمد المتوارث من عهد الإقطاع الظالم... كذلك عملُه التجاريُّ البسيطُ المتمثِّل ببيع السنابل اليابسة وبيع البيض والفراخ لثلاثة أعوام تقريبًا، جعله يشعر بمعاناة المحرومين عمليًّا لا نظريًّا... لذلك حين عمل في وزارة الصحة (ص728) تحوّل مكتبه تلقائيًّا إلى مكتب خدمات صحيّة مجانيّة للناس الفقراء... وكان يشعر بالسعادة لقيامه بذلك الواجب الإنسانيّ... ويقول إنّه وقف من خلال عمله ذاك وبالمعاناة الشخصيّة اليوميّة على المعنى الحقيقيّ للقضيّة الاقتصاديّة- الاجتماعيّة في لبنان بصورة عامّة، وفي الأطراف بصورة خاصّة، لا سيَّما الجنوب، وكان من قبل قد عاين معاناةَ العمّال الزراعيّين القادمين من البقاع للعمل في الزلقا وغيرها....

إنّ المعايشةَ اليوميّة لمعاناة الفقراء كانت أبلغَ من القراءةِ وأشدَّ وقعًا، ممّا زاده نقمةً على النظام الاجتماعيّ-الاقتصاديّ السائد، فيغدو أشدَّ نقدًا له على فسادِ طبيعته أو جوهره وبؤس أعراضه أو

سوءِ تجسّده في الحياة الاجتماعيّة المعيوشة... ويقول (ص728) من هنا وجدتني أصدقَ إيمانًا بالاشتراكيّة حلًّا جذريًّا ونهائيًّا لمعضلة الإنسان في لبنان وفي بلدان العالم كافّة...

أخيرًا يقول إنّ انتقاله إلى بيروت شكّل محطَّةً مفصليَّةً في مسيرة حياته على صعد كثيرةٍ وفي اتجاهاتٍ متعدّدة... وراح الحضور العينيُّ في الجنوبِ يتضاءل... على الرَّغم من ذلك لم تتأثّر سلبًا علاقته الاجتماعيَّة والثقافيّة والسياسيَّة والوجدانيّة أساسًا بالجنوب إنسانًا وأرضًا وتاريخًا وتراثًا و**قضيَّة** أوّلًا وأخيرًا يقول: "نعم كان الجَنوب ولم يزل، **قضيَّةً** في اعتقادي وفي اعتقاد جُلِّ أبناءِ الجنوب إنْ لم أقلْ كلّهم بلا استثناء والجنوب في اعتقادنا قضيَّةٌ ليس بمعنى، معاذ الله، العصبيَّةِ الجهويّة أو العصبيّة الطائفيَّة بل بمعنى أنّ الجنوب، في موقعه الجغرافيّ وفي دوره التاريخيّ، المتواصلِ الحلقاتِ في الدفاع عن سيادةِ الوطن ووحدة شعبه، ينزل بجدارةٍ عاليةٍ، منزلةَ الرَّمز المتألّق للقضيّة الوطنيَّة الكبرى"...

لقد رأى في إقامته الدائمةِ في بيروت، ما يُعزِّز لديه القدرة على خدمةِ هذه القضيّة، بعنوان **رمزها** أي الجَنوب خدمةً مجزية من حيث المساهمةُ في استرعاء الانتباه الوطنيّ العام لواقع **الجنوب - الرّمز**. ومن حيث المساهمة في تعبئةِ المسؤوليّة الوطنيّة، واستنفار الإرادة العامّة انتصارًا له وهو الفارسُ المقدامُ المرابطُ طوعًا على خطّ المواجهةِ الأوّل(التعبير له).